

الشاعر الثائر عبد الحميد الديب

مات الشاعر عبد الحميد الديب.. فمن هو عبد الحميد الديب..؟

كانت حياة عبد الحميد الديب ثورة على الحياة، وكان لهذه الثورة الفردية كل ما للثورات الجماعية من خصائص ومقومات.

أحس عبد الحميد الديب أنه مظلوم، فقد كان شاعرًا، فنانًا، مرهف الحس، ومع ذلك لم يستطع أن ينال حظه من العمل، كان يظل ليله ونهاره يبحث عن لقمة العيش. فإذا عثر عليها لم يجدها في وظيفة، أو صحيفة، أو مصنع يقدمها إليه لا تكرمًا لشعره، ولا إعجابًا بمواهبه، ولكن شفقة على ما يعانيه، من فقر وفاقه.

وجد المجتمع قد أغلق دونه الأبواب فإذا طلبه يومًا فن الباب الخلق، باب البؤس والشفاء، والمرض.

كان بلا مأوى، بلا أهل، بلا عمل، كان - كما قلت

يوم وفاته - يعيش في الزمان لا في المكان.. كان ينام في الليل لا في فندق ولا في بيت.. كان يعمل في النهار لا في مكتب أو مصنع!

وكما تتحول الثورة الجماعية من شعور إلى تمرد ومقاومة، تحولت ثورة عبد الحميد الديب إلى تمرد على المجتمع، ومقاومة له، فكان هذا الجناح في عواطفه، وكانت هذه النظرة القاسية إلى الإنسانية كلها. لقد أحس أنفاسه تحتنق بين برائتها ومخالبها.

وكان يحز في نفسه أن الناس لا يعطفون عليه لأنه شاعر، وإنما هم يعطفون عليه لأنه بائس، فقير مريض. ومن هنا كان يشعر بالمرارة إزاء الناس جميعًا سواء منهم من يسطون أيديهم ليعينوه ومن يسطون أيديهم ليقتلوه.

وقد علل علماء النفس هذه الظاهرة الاجتماعية، ظاهرة العطف على الفقراء والمرضى، بأن النفس البشرية تنزع عما تعرض له. فهي تبذل البر والرحمة للفقير والمريض، فزعًا من أن يصيبها الفقر والمرض.

وقد يثأر سثل أحد حكماء اليونان :

لماذا نعطف على الفقراء ولا نعطف على أصحاب
المواهب!

فقال: لأن الفقر مرض تنتقل عدواه إلى الناس.. أما
الموهبة فهي مرض لا تنتقل عدواه إلى أحد!

وهكذا كان الديب يشعر بأن الناس لا يعترفون بشعره،
أو مواهبه، وأنهم يعترفون فقط ببيؤسه وشقائه.

وهم بين شامت به، ومشفق عليه، وهو ثائر على
الشامت والمشفق معاً.

وقد صور في إحدى قصائده كيف دخل المسجد، لينام،
لا ليصلي وكيف غادره بعد صلاة الفجر إلى الشارع، ومر
بالمقهى، فأخذ الجالسون يرمقونه بنظراتهم، بعضهم يقول:
عريد.. والآخر يقول مسكين!

إذا أذنوا بالفجر طرت مسرة إلى مسجد فيه أصلى وأضجع
أصلى بأدكار المرائى وقلبه ونشت صلاة يحتموها تصنع
أمر هلى المقهى فأسمع شامتاً يمزق فى عرضى وآخر يشفع
وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم فأجعت رأى فى العداء وأجمعوا
وهو ينطلق ليلاً ونهاراً. يسعى إلى تحقيق أمله ورجائه.

فيجد في كل طريق مصرعاً لأماله، وخيبة لرجائه فيصرخ :

أذله الدهر لآمال ولا سكن فتي تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى فجميع الأرض قبلته وإن أقام فلا أهل ولا وطن
ثيابه - كآمانيه - ممزقة كأنها وهى حى فوقه كفن
كأنه حكمة المجنون يرسلها من غير وعى فلا تصفى لها أذن

وينتهى به سعيه إلى غرفة يسكنها وإذا هو وحده كل
ما فيها من أثاث، ويناجى ربه بأبيات تنبض مرارة وثورة :

أفى غرفتي يارب أم أنا فى لحد الأشد ما ألقى من الزمن الوغد
لقد كنت أرجو غرفة فوجدتها بناء قديم العهد أضيق من جدى
فأهدأ أنفاسى يكاد يهدأ وأيسر لمس فى بنائيتها يردى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها فأرجله أمضى من الصارم الهندى
تساكننى فيها الأفاعى جريرة وفى جوها الأمراض تفتك أوتعدى
ترانى بها كل الأثاث فعطفت فراش لنومى أو وقاء من البرد
جوارك يا رى لمثل رحمة فخذنى .. إلى النيران لاجنة الخلد

وهو ينظر إلى أمته فيراها قد احتضنت الجاهل، والدعى،
والمغرور وتركته كئماً مهملاً، بل وجدها لم تحسه، ولم تشعر
به، فيثور :

يا أمة جهلتني وهى عالمة أن الكواكب من نورى وإشراق
أعيش فيكم بلا أهل ولا سكن كعيش متجع المعروف أفاق
وليس لى من حبيب فى دياركمو إلا الحبيين أقلامى وأوراق
لم أدر ماذا طعمتم فى موائدكم لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاق
بين النجوم رجال قد رفعتهمو إلى السماء فسدوا باب أرزاق

وتتابع الأيام ، وتحرى وتركض ، وهو واقف مكانه ، يلهث إعياء
وشظفًا سواء عنده المواسم والمآتم . ويذهب فى عيد الأضحى
إلى بلدته فى مديرية الغربية ، وينزل فى بيته القديم ، فيجده قد
لقى المصير الذى لقيه الشاعر . . لا شئ فيه إلا البؤس
والشقاء والحرمان وذكرىات غابرة . وظن من فى القرية أن
الديب المغترب قد عاد إلى بيته بالعز ، الغارب . وإذا هو
يبكى . وإذا الدار تبكى معه .

مروا على الدار يوم العيد ضيفانا يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها تعاورت فى البكا أهلاً ونيانا
ليت العباد كلاب إن كلبتنا لما تزل لحفاظ الود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة لم تشك جوعاً ولم تستجد إنساناً

وقد قال فى مثل هذه المناسبة يخاطب أهله :
يا معشر الديب وافى كل مغترب إلا غريبكمو فى مصر ما بانا
ذبحتمو الشاة قرباناً لعيدكمو والدهر قدمنى للبرؤس قرباناً
وظل عبد الحميد ثائراً على المجتمع يناصبه العداء،
وبواجهه نقمة بنقمة.

وكانت ثورته تهدف إلى خلق مجتمع يحى رأسه للفنان،
لا لصاحب السلطان، ويحنو على صاحب الموهبة لا على
صاحب العاعة .

الساحر بالحياة..

وأخيراً مات برنارد شو بعد حياة دامت أربعة وتسعين
عاماً. وبرنارد شو كاتب فى جميع اللغات، فقد انتقل أدبه
الجميل إلى كل لغة حية واحتل فيها مكاناً مرموقاً. وهو فنان
موطنه الأصلى إيرلندا، وله بعد ذلك فى كل بلد وطن،
ومسرح وجمهور!.

ولد برنارد شو فى العام نفسه الذى ولد فيه أوسكار
وايلد وفى البلد نفسه - إيرلندا - وكان كلاهما صاحب

مذهب وصاحب أسلوب. وكانا صديقين برغم تباين نظرتيها
إلى الحياة.

كان أوسكار مشغولاً بأن يجيأ كل دقيقة بمدة، وعنف.
فعمصت به الحياة وهو في الرابعة والأربعين، وكان شو راغباً
عن الحياة ساخرًا بها هادئًا في استقبال أيامها، فأعطته أربعة
وتسعين عامًا!

عاش أوسكار كل دقيقة من حياته القصيرة، عاش
بالعرض..

وعاش برنارد بعض حياته المديدة عاش بالطول!
ترى أيهما قد عاش حقًا؟ وأيها يا ترى سيعيش في
التاريخ أكثر من صاحبه؟ أوسكار صاحب الأسلوب الحاد
العنيف اللاذع الصريح في جرأة وطيش.. أم شو صاحب
الأسلوب الساخر الذي لا تعوزه الصراحة أحيانًا وتعوزه الجرأة
والطيش في كثير من الأحيان؟!

كان شو ساخرًا بالحياة.. وما أكبر سخرية الحياة منه
حين أعطته، عمر القرون.. لقد استوى الآن في مشواه مع
من ماتوا في عمر الزهور!

قال له أحد الصحفيين : إننى أتمنى أن أعيش حتى أراك
فى سن المائة، فنظر إليه شو ملياً ثم قال : ولم لا ١٩ إن
صحتك على ما أرى تسمح بتحقيق هذه الأمنية !

وزار بعض المقابر لوجد على أحد الأضرحة هذه العبارة :
هنا يرقد السياسى الشريف فلان، فقال : هل توجد أزمة
مقابر حتى يدفنوا السياسى والشريف فى قبر واحد ؟ !

واقترحت عليه إحدى السيدات أن يتزوجها فإذا ألجأ
طفلا ورث جمالها هى وورث عقل شو..

فقال لها : وماذا نصنع إذا ورث رجاحة عقلك وورث
جمال !

كان شو يعتقد أنه سيحيا ٣٠٠ عام. ما أكبر تواضعه !
فسوف يحيا آلاف السنين لا فى الدنيا، ولكن فى التاريخ،
وهذه هى الحياة !

الدموع لا تكذب !

أضليت الليلة فى قراءة أشعار نظمها خلال عشرين سنة.
كل مقطوعة من هذه الأشعار تمثل تجربة دخلتها وبقيت فيها،

كنت الملح خلال الكلمات كل ما رأيته، وعشته، وأحسسته،
عندما نظمت هذه المقطوعة أو تلك، بعضها استطاع أن يعبر
بصدق عن شعورى، وبعضها عجز عن التعبير الصادق
فالمحرف عن الحقيقة تحت ضغط الوزن، أو حكم القافية !

ماذا أسمى هذه المقطوعات التى خائنى فيها التعبير؟ هل
أسميها شعراً عذباً تطبيقاً للمثل العربى القديم «أعذب الشعر
أكذب»؟ ولكنى لا أومن بصدق هذا المثل. بل إن أرى أن
الشعر مثل أى فن إذا لم يكن صادقاً فهو هباء.. هل أسميه
نظمًا؟ ولكن ما قيمة النظم، إذا لم يكن له دافع وهدف من
الواقع، والشعور، والتفكير؟ ما جدوى الاهتمام بإطلاق اسم
عليه، أو الاحتفاظ به دون تسمية؟

ولم تكذب هذه الخواطر تملأ رأسى حتى بادوت بتمزيق
أشعارى الزائفة، وأبقيت على الشعر الذى أعرف أنه نبع من
ذاتى، وتجابوب مع الواقع الذى عشته.

إن أكثر الشعر الذى احتفظت به، يفيض بالدموع ومن
أجل هذا كان صادقاً فليس أصيدق من الدمع. إنك تستطيع
أن تقول كلاماً جيلاً مقنعاً، يشبه الصدق، وأنت كاذب..

وتستطيع أن تخضع لملاحك، وإشاراتك، وحركاتك للحزن والأسى، وأنت لا تحس حزنًا ولا أسى! وتستطيع أن تضحك ملء فمك وأنت حزين..

أما الدموع فهي لا تكذب، ولا تجاريك في كذبك.. إنك لا تستطيع أن تسيلها من عينيك إلا إذا مس الحزن قلبك.. والدموع يبعثها الألم، وهي وحدها التي تخفف الألم!

توفيق الحكيم..

بقلم توفيق الحكيم!

{ كان توفيق الحكيم فيما مضى معروفًا بأنه عدو المرأة والفقر والبرد.. وقد أصبح الآن عدو الفقر والبرد ليس إلا! ولأنه يخشى البرد تراه دائمًا يحكم إغلاق النوافذ والأبواب ولا يعرض أى جزء من جسمه للهواء حتى فى أشهر القيظ الشديد!.. ولأنه يخشى الفقر تراه دائمًا يحكم إغلاق جيوبه على ما فيها من دفاتر شيكات أو بوالص تأمين، وعلى ما فيها من محفظة نقود، وإن كانت هذه المحفظة خالية من النقود!

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يصب بالبرد في حياته، فما أكثر ما أصيب بالبرد على الرغم من تدثره بالملابس الثقيلة صيفًا وشتاءً!

وليس معنى هذا أيضًا أن توفيقًا لم يتعرض للفقر وشظف العيش، فإن حياته حافلة بتجارب قاسى فيها الأهوال بسبب قلة النقود.. هكذا هو يقول!

وذكر لى توفيق الحكيم أنه برغم شدة حذره من المرض يمرض كثيرًا. وبرغم خوفه من الفقر ما زال فقيرًا.. ويسألنى: ما رأيك فى هذا؟

وقلت له: هناك حكمة تقول: الناس من خوف الفقر فى فقر.. وتستطيع أن تضيف إليها: والناس من خوف المرض فى مرض.. فلا تخش المرض تنج منه. وإذا أنت لم تخش الفقر تصبح غنيًا! فضحك وقال: قصدك أصبح غنى النفس..؟ هذا الغنى موجود سواء كان المال موجودًا أو غير موجود!

وكانت هذه الدردشة لمناسبة انقطاعه عن السهر فى دار «أخبار اليوم»، وكان قد اعتاد أن يسهر معنا ليلة فى

الأسبوع، ثم انقطع عن السهر، وقال إنه أصبح لا يسهر إلا في النهار حتى لا يتعرض للبرد.. وقد سهرت معه هذا النهار فعلاً، في دار صديقنا محمد حسنين هيكل.. وبعد انتهاء الجلسة أو السهرة النهارية، انطلقنا معاً إلى الشارع وأخذنا نتحدث عن آثاره الفنية، وأبدت له إعجابي بكتابه زهرة العمر. لأن هذا الكتاب يرسم ملامح عبقريته، ويلقي الضوء على أصولها ويحلل كل قطرة دم، ونبضة عرق، وخلجة نفس والتفاتة ذهن في توفيق الحكيم الفنان، ووافقي على هذا الرأي. وأخذ يحلل كتبه وقصصه ومسرحياته. فرفع بعضها إلى القمة، وألقى ببعضها في الهاوية. وقال إن مصيئته الكبرى أن ما يعجب الناس من آثاره لا يعجبه. وما يعجبه لا يعجب الناس!

واقترحت عليه أن يقوم بتأليف دراسة عن آثار توفيق الحكيم. فيتناولها بالنقد، والملاحظة، والهجوم.. وستكون هذه الدراسة ولا شك عملاً أدبياً ضخماً، وأشرت عليه أن يسميها توفيق الحكيم بقلم توفيق الحكيم!

ولكن توفيق لم يتحمس للاقتراح، واكتفى بأن هز رأسه وقال: اقترح ذلك على طه حسين والعقاد؟

فقلت : هل اقترح عليها أن يؤلف كل منها كتاباً في نقد
توفيق الحكيم ؟

فابتسم بصوت مسموع وقال : اقترح عليها أن يؤلف كل
منها كتاباً في تحليل آثاره هو : فتقرأ العقاد بقلم العقاد ، وطه
حسين بقلم طه حسين . .
أنا شخصياً أتمنى ذلك !

ذكرى ناجى

لم أستطع أن أحضر الاحتفال الذى أقيم اليوم تخليداً
لذكرى الشاعر الدكتور ناجى . فقد اضطررت إلى مغادرة
القاهرة ، لظرف خاص مفاجئ .

لا أدرى ماذا حدث فى الاحتفال . . لقد قرأت البرنامج
فوجدته عامراً بأسماء الخطباء والشعراء والمفكرين ، ممن عرفوا
ناجى الشاعر الإنسان وعاصروه ، ودرسوا حياته الأدبية
والاجتماعية . لا شك أنهم جميعاً أجادوا فى الإشادة بذكره ،
وشعره ، ولا شك أنهم بكوه أحر بكاء . ولكن لا أدرى هل

وقفوا في تحليله عند هذا الحد، أو تجاوزوا ذلك إلى إجراءات
عملية تحليل ذكرى هذا الشاعر الغنائى العاطفى ؟

يجب لتحليل ذكرى ناجى جمع أشعاره كلها، واختيار
الشعر الغنائى منها، وطبعه فى ديوان مستقل، لأن هذا الشعر
بالذات تفجر من قلب ناجى، وإنك لتلمح فى كل قصيدة
من قصائده الغنائية العاطفية، بصمة أعصابه، وتوقيع دمه !
أما أشعار التأملات والظنون والخيرة والرثاء فتطبع على
حدة فى ديوان آخر.

لقد كان ناجى شاعرًا ملتهب الأعصاب مشرب العاطفة،
يغنى آلامه، ويشدو بأحزانه، وفي مجموعة شعره لوحات
عاطفية أحب أن أوجه إليها أنظار الملحنين .
فى ملحمته « الأطلال » أكثر من عشر قطع تفيض شعورًا
وصورًا وأخيلة.

اقرأ، بل اسمع :

أنت حسن فى ضحاه لم يزل	وأنا عندى أحزان الطفل
وخيوط النور من نجم أفل	وبقايا الظل من ركب رحل !

واسمع :

أين منى مجلس أنت به فتنة نمت سناء وسنى
وأنا.. حب وقلب ودم وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق.. رسول بيننا ونديم قدم الكأس لنا
وسقانا.. فانتفضنا لحظة لغبار آدمى مسنا

وقد سبق أن قام المرحوم الدكتور إسماعيل أدهم بدراسة
عن شعر ناجى.. ويمكن إعادة طبع هذه الدراسة، وتأليف
لجنة من الشعراء والكتاب تتولى وضع دراسة تحليلية شاملة
للدكتور إبراهيم ناجى الشاعر والكاتب والطبيب، وتسجل قصة
حياته منذ كان طفلاً يترنم بالشعر في درس الحساب..
فيضربه مدرس الحساب! إلى أن لفظ آخر أنفاسه وهو
يكشف في عيادته الخاصة عن قلب أحد مرضاه.. ومات
الطبيب وعاش المريض!

احتجاب الصحفيين

الصحف في إجازة لمناسبة العيد، احتجبت عن الناس
اليوم، وستحتجب غداً.

لماذا لا يحتجب الصحفيون أيضاً، كما احتجبت

صحفهم..؟ لماذا لا يريحون الناس منهم، يوماً أو يومين؟
أعجبتني هذه الفكرة، واعتزمت أن أنفذها، فقررت
ملازمة البيت طول النهار والليل..

تناولت غداً، واستلقيت على الفراش، أتمشى،
وأثناء، أطرده اليقظة باصطناع النوم.. وأطرده النوم باصطناع
اليقظة.. ولم أحاول أن أقرأ أو أكتب أو أفتح الراديو، أو
أحدث في التليفون.. وفجأة وجدتني أنظر إلى غير اتجاه،
شارد الفكر، مفتوح الفم.. أشبه بمجنون، أو مجذوب، أو
مليونير سفيه..! ولم أطق الجنون ولا الانجذاب، ولا المليون
جنيه التي تسبب السفه.. فارتديت القميص والبنطلون،
وأخذت أتمشى في البيت، لأشعر بأن لا أزال إنساناً عاقلاً
متحركاً!

ودق جرس الباب، وقبل أن أنه من معي إلى أنى لست
هنا.. كانوا قد استقبلوا الزائر الذي دق الجرس، وقالوا له
إني هنا..!

وكان الزائر كريماً في تبذير وقته معي.. فقد دامت زيارته
أربع ساعات..! كان يحدثني عن أشياء لا أفهمها، حدثني

عن الزراعة وأثر تقلبات الجو في المحصول الزراعى.. حدثني
عن تربية المواشى وكيف يستطيع الإنسان بماشية واحدة أن
يؤلف ثروة طائلة.. حدثني عن عظمة مأمور المركز الجديد،
وما يمتاز به من أخلاق كريمة، وأنه على عكس المأمور السابق
الذى كان شرساً، ويحب الأذى..!

والزائر الكريم يمت لي بصلة قرابة، وقد جاء القاهرة
تخصية يومين ابتهاجاً بالعيد، وسأله: أين أمضيت اليومين؟
فقال: أنا جئت من القطار إليك. وسأبلى غداً لأزور
الشايع وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا، وبعد غد أعود إلى
البلد بمشيئة الله..!

وقلت له: ألم يكن فى استطاعتك أن تقرأ الفاتحة وأنت
فى بلدك..!

فقال: الحقيقة أن القاهرة أوحشتنى.. لى ستان لم أرها،
وكنى قبل ذلك أجيئها فى العام مرتين..
- وماذا كنت تصنع فيها..؟

قال: كنت أزور المشايخ وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا..

وعقب قائلا : سمعنا ونحن في البلد أن القاهرة تغيرت كثيرا عن زمان.. فهل هذا صحيح..؟

وقلت له : إن القاهرة التي تعنيها ونحن إلى رؤيتها لا تزال كما هي.. لم تتغير في شيء..؟

وحاولت أن أغريه بالانصراف.. فأغمضت عيني وأطرقت برأسي إلى صدري كمن يريد أن ينام فقال لي :

- أنت راح تنام والا إيه..؟ الساعة لا تزال ١٠ والمعروف عندنا أن الصحفيين تعودوا أن يسهروا حتى الصبح..

وقلت له : إن الصحف في إجازة ونحن نسهر لنعمل فيها، وما دامت الصحف لا تصدر فإننا نمنح أنفسنا إجازة من السهر..!

وفهمت منه أنه يريد أن يقضي معي أكثر فترة من الوقت، إلى أن يحجى موعد صلاة الفجر فيؤدي الصلاة في سيدنا الحسين، ومن هناك يبحث عن سكن أحد أقربائه لينزل ضيفا عليه.. وسألته : لماذا لا يبحث عن سكن قريبه هذا منذ الآن.. فقال : الصبح رباح، والنهار له عيون..!

وقلت له : لماذا لا تذهب إلى فندق نوم وحالتك تسمح
بهذا والحمد لله ؟

فضحك وقال : بعدما شبناء .. علوزنا ننام فى اللوكاندات
والعياذ بالله ! الى ما عملناها واحنا شباب .. !
وعدت فثلت دور النائم، فقال لى :
- انت عامل نائم .. ؟ !

وقلت له : دانا عامل صاحى .. ! أنا نائم فعلاً .. !
ولما غادر البيت، لزمته غرفتى، وحاولت أن أنام. ولكن
أحاديث الرجل وزيارته الكريمة، أطارى النوم من جفنى
وظللت أقرأ حتى الصبح .. وهكذا لم أستطع أن أمنح نفسى
إجازة يوماً واحداً .. لا من الناس، ولا من الأرق .. !

لغة الأغاني ..

سمعت للأستاذ الدكتور طه حسين حديثاً فى الراديو عن
الشاعر المصرى إسماعيل صبرى. وقد أشار إلى ما فى شعر
صبرى من رقة وعذوبة وجمال. وتغنى لو أن الملحنين المصريين

التفتوا إلى هذا الشعر، وجعلوا منه مقطوعات غنائية، نحل محل السخف الذى نسمعه كثيرًا أو قليلا فى هذه الأيام!

وليس الدكتور طه وحده بالثائر الوحيد على لغة الأغاني، فكثيرون ثائرون على هذه اللغة، وهم يرمونها بالتبذل والإسفاف. وأحب إنصافًا للتاريخ أن أقول فى غير تحفظ، إن لغة الأغاني اليوم، أرقى وأسمى من لغة أغاني الأمس. بل يمكن أن يقال إن الأغنية الشعبية بلغت من حيث الصياغة الفنية، والمضمون، وطريقة نفاذ الموضوع ما لم يبلغه الشعر الفصيح فى أزهى عصوره. وأنا أطالب الدكتور طه وجميع الثائرين على لغة الأغاني أن يتابعوا تطور الأغنية المصرية وكيف كانت تتضمن مثلاً: «شفنى بتاكلنى أنا فى عرضك» و«ميلتى بجنى فى الحب يا أختى»! و«قدك أمير الأغصان» إلى غير ذلك من عبارات سقيمة تافهة.

كانت هذه لغة أغانينا بالأمس، ولقد تطورت الأغاني حتى صارت مقطوعات شعرية، ترسم صوراً فنية كاملة، تمتاز بالجمال، والعذوبة، والوضوح.

لست أزعم أن الأغاني كلها أصبحت كذلك، ولكنى

أقول - دون أن أتجاوز الحقيقة - إن تسعين في المائة من الأغاني التي تردها مطربتنا ومطربونا تمثل أرق أسلوبي للأغنية العاطفية.

ولكن الثورة على الأغاني لا تقف عند حد لغتها بل هي تتجاوزها إلى الموضوع، وقد بدأ هذه الثورة الأستاذ سامي داود وتابعها واستمر فيها الأستاذ حسن إمام عمر، وكلاهما يأخذ على الأغنية المصرية أنها لا تزال ترزح تحت عبء الذل والهوان، وتحرك في إطار اللوعة والهوى، وأنا أوافق الصديقين على أن الأغنية المصرية يجب أن تعبر عن الحياة، وليس معقولا أن حياتنا كلها صباة، وشكوى، وبكاء على الأحباب. ففي حياتنا تمرد على الفقر والحرمان، وفي حياتنا كفاح في المصنع والمزرعة. وفي حياتنا مقاومة للحروب، واستجابة للسلام، وفي حياتنا كما في كل حياة، وفاء وغدر، وخير وشر، ونور وظلام، وأضواء وظلال، وثورة وهذوء.

ولكن من المسئول عن تقصير أغانينا؟ هل هم الشعراء؟ لا أظن فنحن نقرأ لهم شعرا يمثل الحياة من جميع جوانبها وزواياها، ولا نسمع هذا الشعر يغنى إلا إذا كان يصور جانب الحب وزاوية الألم؟

هل المطربون هم المسئولون؟ ولكن هؤلاء - في الغالب - لا يؤدون الأغنية إلا إذا كان لها مكان في الفيلم، أو في برنامج الإذاعة؟

المسئولون في رأيي عن هذا التقصير هم مخرجو الأفلام ومتجوها ولجنة اختيار الأغاني في الإذاعة.

وأبادر فأقول إنى لا أريد أن تصبح كل أغانينا صوراً وصفية للمصانع والمزارع والشوارع، ولكنى أريد أن تكون تعبيراً صادقاً عن الكفاح في المصنع، والمزرعة، والشارع، وليس معنى ذلك أن تلغى الأغاني التي تعبر عن المشاعر الإنسانية الثابتة، مشاعر الألم والحب. فنحن في حاجة إلى هذه الأغاني، حاجتنا إلى المصنع نفسه، والمزرعة نفسها!

مولد.. ووفاة!

كان رأسى يدور حول لا غاية ولا هدف، وأنا أمشي في فناء محطة القاهرة بين مئات دارت رؤوسهم مثلى.. كنا نودع صديقاً من عالمنا ونشيعه إلى عالم آخر! وانتهالت انفعالات الحزن والحيرة والتساؤل على نفسى..

وتذكرت كيف احتفلنا منذ سنوات بعيد ميلاد صديقنا..
وكيف نحتفل اليوم بوفاته؟

كان احتفالنا بعيد ميلاد حسن الأعور في الباخرة «أرييا»
عام ١٩٤٦ أو ٤٧ لا أذكر بالضبط. وكان قد أقام في
الباخرة بضعة أيام، يلتمس الراحة والبعد عن جو البيت،
وحل عيد ميلاده وهو في الباخرة، واقترح عليه أحد أصدقائه
أن يقيم احتفالاً، فقال: نحن صعايدة ولا نعرف مثل هذه
العادات. وأقسم الصديق أن يقيم في الباخرة حفلة لم يعرف
مثلاً أحد قبل حسن الأعور.. وبر الصديق بقسمه. فقد
حضر الحفلة عشرون من أصدقاء حسن بينهم الدكتور عبد الوهاب
مورو، والدكتور حسين عرفان، والأساتذة توفيق الحكيم،
وعبد الوهاب الشريعى، وقاسم الشريعى، والسيدة أم كلثوم،
والأستاذ محمد عبد الوهاب، والمرحومة الأنسة كاميليا.
وأشاع حسن الأعور بين الموجودين أنى معجب بجمال كاميليا.
وأخذ يداعبني بقفشاته، ويسخر من ذوقى.. وأخرجنى جو
السهرة عن هدوئى فنظمت أبياتاً من الشعر وجهتها إلى
كاميليا أذكر منها هذا البيت.

إن بعض الجمال يذهل قلبى عن ضلوعى. فكيف كل الجمال

وتطوع توفيق الحكيم بترجمة أبيات الشعر إلى اللغة الفرنسية. . . لتتمكن كاميليا من فهمها وتذوقها، وتولى عبد الوهاب تلحين الأبيات وقد حفظتها أم كلثوم في الحال وغنتها، وظل عبد الوهاب ممسكاً بالعود لأم كلثوم، وظلت أم كلثوم تغني حتى مطلع الفجر!

ما أكثر الابتسامات، والضحكات. وانتفاضات المرح والنشوة التي بعثها فينا احتفالنا بعيد ميلاد صديقنا.

واليوم - بعد ثمان سنوات أو أكثر - استحالت هذه الابتسامات والضحكات دموعاً حارقة، واستحالت انتفاضاتنا المرحية النشوانة صواعق انقضت على نفوسنا ونحن نستقبل جثمان الصديق من القطار العائد من الإسكندرية ونضعه في القطار الذاهب إلى المنيا. . . إلى العدم!

قسوة الحرمان في حياة أنور وجدي

كنت في طريق إلى دار أحد أصدقائي في الزمالك، وكان معي الفنان محمد عبد الوهاب. فأشار إلى «فيلا» أنيقة وقال لي: هذه هي «الفيلا» التي كان المرحوم أنور وجدي قد

اشترأها قبيل وفاته وأعدها لسكنه وقد مات رحمه الله قبل أن
تطأها قدماءه !

وفى المساء قابلت الأستاذ جليل البندارى أمام وزارة
الأوقاف، وكان يحمل ورقة وقلماً فلما رآنى أخفى الورقة فى
جيبه وصافحنى بيده وسألته عن الورق الذى أخفاه وهل
يتضمن أغنية جديدة. أو قصة سينائية أو عقداً بينه وبين
فنانين أو مقالا صحفياً؟ فجليل البندارى مؤلف أغانى
وقصصى ومنتج سينائى ومحرر فى دار « أخبار اليوم » وانفتح
فم جليل عن ابتسامة أو تكشيرة لا أدرى !! فن العسير أن
تعرف تكشيرة جليل من ابتسامته... إلا إذا قال لك
بصراحة هذه تكشيرة وهذه ابتسامة !

وفهمت مما قاله جليل أنه حزين، وروى لى أنه كان
يسجل فى الورقة التى دسها فى جيبه معلومات عن أنور
وجدى.

وأردت أن أضيف إلى معلوماته أن الفيلا التى بناها أنور
ليسكنها لم يدخل بابها.. فقال لى : بل إن هذه العمارة التى
دفع فيها معظم ثروته والتى جذبت إليه عيون الحاسدين لم

يدخلها وهي كاملة البناء.. ثم قال : هل تعلم أن أنور صاحب هذه العمارة. وصاحب فيلا الزمالك لم يجد بعد موته غرفة بيت فيها جثمانه إلى الصبح.. لقد ظل جثمان أنور فوق الرصيف في حراسة موظف عنده يدعى «ليون»..

واستطرد يروى القصة :

على أثر وصول الطائرة التي تقل جثمان أنور وجدى وتقل قرينته السيدة ليلي فوزى تجمع الناس حول ليلي، وتركوا الجثمان في حراسة الخواجة «ليون» وجاء أهل أنور، وصحبوا ليلي معهم في عربة وأخذوا يتحسسون جسدها بأيديهم للاطمئنان على صحتها الغالية... وأكدت لهم ليلي أنها لا تحمل مرغماً... ولا تحمل لهم حقداً... ولا تحمل أى شيء!

وذهب ليون بالجثمان إلى مكتب أنور فوجده مغلقاً، وذهب إلى البيت فوجده مغلقاً. فبق مع الجثمان فوق الرصيف. حتى الصبح، ثم استقل عربة إلى المقابر ولم يكذ أهل الفقيد يصلون إلى المقبرة حتى جاءهم من يقول إن مندوب إدارة التركات قد وصل إلى مكتب أنور، فترك أهله المقابر وعادوا

إلى المكتب ليقابلوا مندوب التركات !
وتولى ليون وحده دفن الجثة هو وبعض أصدقاء أنور ممن
ليس لهم في تركته أدنى نصيب..!

كم لقي أنور وحدى.. من قسوة الحرمان.. عاش يكافح
الفقر والإخفاق، فلما أئثرى ونجح أخذ يكافح المرض
والموت.. إلى أن مات محروماً..

العمارة التي شيدها لم يستمتع بها، والفيلا التي اشتراها لم
يسكنها، والمال الذي جمعه بصحته وحياته لم ينفق منه إلا على
مرضه وموته..

ما أعجب حكمة القدر!.. عندما نستطيع الحياة لا
نجدها.. وعندما نجدها لا نستطيعها!!

الإمام المراغى وحافظ إبراهيم

حضرت الاحتفال بذكرى الإمام المراغى في داره ببلوران.
لقد أحببت هذا الرجل بعقل وقلبي. أحببته إنساناً، وأحببته
رجل دين.



كان زميلاً لوالدي. فعرفته وأنا طفل صغير. وكانت
طلعت تهرى. وكنت أجد راحة كبيرة في الإصغاء إليه، وهو
يتحدث في أشياء لا أفهمها ولا أعياها. كان صوته ساحراً
جذاباً.

ولما كبرت، وأصبح في استطاعتي أن أدرك وأعى، تبدلت
نظرتي إلى كثير من الناس والأشياء، ولكن نظرتي إلى الشيخ
المراغى لم تتبدل. فظللت مبهوراً بشخصيته، وكان صوته وهو
يتحدث في المسائل العامة، أو يلقي أحاديثه الدينية، يأخذ
أذني، ويخطف سمعي.

وكان - كلما لقيني - يسألني عن آخر ما قرأته في الشعر
العربي.. ثم يعقب على ذلك بإنشاد أبيات لأبي العلاء أو
المتنبي أو شوقي ويقول هل هناك ما هو أجمل من الشعر؟

وقد كان المراغى أديباً يحب الشعر والشعراء. وقد تعلق
به الشاعر حافظ إبراهيم تعلقاً شديداً، وكان أجمل أوقات
حافظ، هذه الساعات التي يقضيها مع الشيخ المراغى في داره
بجملوان يتناقش معه في المسائل الدينية والأدبية، وكثيراً ما كان
حافظ يداعب الشيخ. وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويحرضه على
المزيد منها.

طلب حافظ وهو في دار المراغى زجاجة كولونيا. فاحضر
له الشيخ زجاجة. وقال وهو يقدمها إليه : خذها وأنت
ومخّثك. يا ترى ماركة إيه دى ؟

فقال حافظ على الفور :

لازم مية القيس ؟!

واشترى الشيخ المراغى خمسة من الديوك الرومى. ولم
يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فأرسل حافظ إلى الشيخ
كتاب تعزية قال فيه :

رحم الله خمسة من ديوك للمراغى عوجلت بالفناء
فلو أن الأستاذ خير فيها بين موت لها وبين فداء
لافتداهما بخمسة من شيوخ من أساطين هيئة العلماء
وكان المراغى في ذلك الوقت شيخًا للأزهر ورئيسًا
لأساطين هيئة العلماء !! غفر الله لنا ولحافظ إبراهيم !

الغفران

كنا نتحدث عن الشاعر عمر الخيام. هل كان ملحدًا ؟
هل كان شاكًا ؟ هل كان متصوفًا ؟ هل كان عريذًا ؟

وقلت : إن الخيام كان مؤمناً... وفقر الحاضرون أفواههم
وقالوا هل يكون مؤمناً من يناقش الله ويعاتبه.. ويقول له :
كيف لا تغفر لى إلا إذا تبت عن ذنبى... إنك لست تاجراً
حتى تعطينى غفراناً مقابل توبة.. ولكنك إله تعطى بلا
مقابل !

إن هذا تجديف

قلت : إن هذا التجديف يدل على الإيمان أكثر مما يدل
على الإلحاد. فالإيمان بالله هو أن تشعر به.
والخيام يخاطب الله كما لو كان سبحانه وتعالى، كائنًا حيًا
يرضى ويغضب، يقسو ويرحم... وهذا شعور عميق نافذ،
جارف. بوجود الله.

ربما كان تصور الخيام خاطئًا، ولكن الشعور صحيح،
وإذا كان منطق الخيام ضعيفًا أو تافهًا، فإن هذا لا يعنى أنه
غير مؤمن، وما أكثر المتصوفين والمنقطعين لعبادة الله الذين
خاطبوا ربهم، عاتبين ساحطين، وقد روت الأساطير القديمة
أن أبوب، وهو نبي من أنبياء الله، ثار على ما امتحنه الله
به، من موت زوجته وأبنائه. وإصابته بالجذام. والبرص

والطاعون... ولما زاره أصدقاؤه من الملائكة والرسل وسمعوا
صرخاته في وجه الله هربوا منه فقال لهم الله لماذا تهربون؟..
لو لم يغضب من قسوق لما استحق رحمتي!
وتطرق الحديث إلى الخيام وهل هو فيلسوف؟

وقلت إن الفيلسوف يجب أن يكون صاحب مذهب،
والخيام صاحب خواطر وأفكار وانفعالات، فهو شاعر وليس
فيلسوفاً.. ولقد تأثر بأبي نواس وبأبي العلاء المعرى.
وقيل: إن تأثره بأبي العلاء كان أكثر من تأثره
بأبي نواس. وأبو العلاء كان فيلسوفاً.

وقلت إن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً لكن كان شاعراً،
وما تصورناه فلسفة ليس إلا تفكيراً، وتأملاً، ولا يمكن أن
نعد زهده في الحياة وعزوفه عنها مذهباً فلسفياً، وإنما هو نظام
ربط نفسه به ولم يدع أحداً إلى انتهاجه.

وفي أثناء ذلك دخل الأستاذ الشيخ الباقوري وقال: عم
تساءلون؟

قلنا: عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.
وقال: أي نبأ... وأي خلاف؟

قلنا... نبأ الخيام وهل هو ملحد؟ أو هو مذهب؟
وقال الأستاذ الباقرى إن الخطيئة طبيعة فى الإنسان.
وعلى الإنسان ألا يجاهر بها، والله يغفر الذنوب لمن يشاء..
وروى هذا الحديث الشريف وهو:

«كل أمتى معافى، إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل
المرء بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان:
إني عملت كذا وكذا.. فيبیت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله
عنه».

وروى الأستاذ الباقرى حديثاً قدسياً هذا نصه:

«عبادى لا تيأسوا من رحمتي إذا أذنبتم، فوعزق وجلالى لئن
لم تذنبوا لخلقت خلقاً غيركم يذنبون، فيستغفرون فأغفر لهم».